الباب الثالث

نظرة فى شعر المؤيد

الفصل الأول

نظم المؤيد

كان المؤيد رجلا صاحب فن كما كان علما من أعلام المذهب الفاطمى ، ولكننا نستطيع أن نقول إن فن المؤيد نتيجة لاعتناقه مذهب الفاطميين. كما كان نتيجة للحياة التى كان يحياها والبيئة التى كان يعيش فيها.

كانت صفته المذهبية تضطره إلى أن يحيط بكل شىء حوله . وأن يلم بالآراء الفلسفية والمذاهب الدينية التى كانت تملأ الأقطار الإسلامية فى عصره. فاضطرته إلى أن يأخذ بحظ وافر من الحياة العقلية المختلفة . وكان المؤيد مضطرا أيضا إلى أن يرد على مخالفى مذهبه طورا بالكتابة وطورا بالمجادلة والمناظرة الشفوية . فكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى أن يكون المؤيد حريصا أشد الحرص فى أسلوبه ولفظه وأن يكون ناقدا مدققا. ينظر ويمد نظره ويقرأ ويطيل القراءة. ويفكر ويمعن فى التفكير ويحلل أقوال خصومه تحليلا دقيقا حتى يعرف موطن ضعفهم كى يهاجمهم منه ويفند آراءهم. كما اضطر أيضا إلى أن ينقد نفسه ويحاسبها وينقد فنه قبل أن يذيعه فى الناس حتى يستطيع بذلك أن يدافع عن عقيدته دفاع رجل يريد إفحام خصومه بمنطقه وبيانه. ولذلك كان لملكة النقد أثر قوى فى فن المؤيد،فقد اضطرته إلى أن يتخذ الأسلوب الذى يبهر به السامعين أو القراء ويجعل من أسلوبه سلاحا بجانب منطقة وبيانه. والمذهب الفاطمى الذى كان المؤيد قطبا من أقطابه وداعية من دعاته جاء بعلم الباطن أو التأويل وقد ذكرنا أن أساس التأويل يعتمد على قوة الملاحظة وخصوبة الخيال وقدرة على التغلغل فى دقائق الموجودات ليتخذها المؤول دليلا على أسرار الدين. ولا يستطيع إنسان أن يرقى فى مراتب الدعوة الفاطمية إن لم تكن لديه هذه المواهب والخصائص. وهذه كلها كانت تتوافر لدى المؤيد بل كانت قوية جدا عنده حتى رفعته إلى أعلى درجات الدعوة. كما أثرت فى فنه فاتجهت به اتجاها خاصا لا نكاد نجده عند شاعر آخر فى عصره إلا عند أبى العلاء المعرى، فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفا فى شعرهما اختلاف عقائد الناس فى عصرهما وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية وغير الفلسفية وعن الحياة وعن الموت وعن دقائق الكائنات العلوية والسلفية.

أضف إلى ذلك كله أن المؤيد كانت له نزعة أدبية ومزاج فنى توصل بهما إلى أن يخرج فنه أحيانا من فن العلماء الخالصين إن صح أن يكون للعلماء فن.

لا ننكر أن علم المؤيد كان قوى الأثر فى نفسه. وقد يكون علمه وقوة عقله من أسباب ضعف شعره فى كثير من الأحيان. إذ اصبح علمه واضحا جليا بينما اختفى فنه أو كاد يختفى لأن المؤيد كان يتجه أحيانا إلى اتجاه علمى يختلف عن الاتجاه الفنى الذى يقصد إليه الشعراء ورجال الفنون. أى أن خيال المؤيد كان يضعف أمام علمه وعقله. وإذا قرأنا ديوان المؤيد يروعنا أنه فى أكثر قصائده قد عنى عناية تامة ببث عقائد مذهبه والدعوة إليها فى أسلوب العلماء. فطغى ذلك على جمال بعض قصائده بل لا أغالى إذا قلت إن علمه فى هذه القصائد قد أفسد عليه الشعر حتى لم يبق له من سمات الشعر سوى الوزن والقافية. ولذلك لا أستطيع أن أسمى بعض قصائد هذا الديوان شعرا. فالرجل الذى يفرح أو يألم أو الذى يرى منظرا أو لونا من ألوان الحياة تؤثر فى نفسه ويعبر عما فى نفسه هو الشاعر الطبيعى الذى نستطيع أن نطمئن إلى أن نسمى ما يقوله شعرا. أما هذه القصائد العلمية التى أراها فى ديوان المؤيد فهى ليست بشعر. بل هى متون علمية نظمت وأخذت هيكل الشعر. فهى تخلو من أهم عناصر الشعر. فلا أجد بها عاطفة ولا خيالا. إنما هى آراء علمية اعتنقها فريق من الناس واعتقدوا صحتها. ونبذها فريق آخر واعتقدوا بطلانها. فهذه المتون العلمية التى صيغت فى قالب الشعر ما هى إلا نظم. فعلى هذه الصورة أستطيع أن أسمى المؤيد ناظما مثله فى ذلك مثل أبى العلاء المعرى فى لزومياته. فالمعرى فى هذا الديوان ليس بشاعر إنما هو ناظم صاغ آراءه فى قالب الشعر والتزم فيها ألوان القوافى وضروب الوزن فكان تقيده بما لا يلزم وما حمل ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا فى أن يبعد ديوان اللزوميات من دائرة الشعر الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر. والناظم فى أسلوبه يختلف عن الشاعر فى أسلوبه. إذ تغلب على الناظم النزعة العلمية فيعمد إلى المعانى يختارها ويحاول أن يوفق فى تقريب معانيه وأفكاره إلى عامة الناس. بخلاف الشاعر الذى يبغى أن يصور نفسه أو بيئته فتملى عواطفه عليه الشعر ويصدر قوله عن وحى إلهامه وخياله. فالناظم خاضع لعقله وعلمه لا ينطق بشىء إلا بعد جهد ينفقه فى التفكير حتى يلائم بين المعانى العلمية التى يريدها وبين القالب الشعرى الذى يصوغ فيه علومه. أما الشاعر فله ملكته الفنية وشعوره المرهف فهو خاضع لإلهامه وعواطفه لا يجهد نفسه فى اختيار المعانى أو اللفظ. إنما ينطلق لسانه بما تجيش به نفسه من غير تصنع أو تعمد كالذى يضطر إليهما الناظم.

جاء في الصناعتين (شعر الرجل قطعة من علمه)[1] وقد صدق أبو هلال في قوله فالشاعر الذى يلم بعلم غزير يظهر أثر علمه فى شعره. فإذا اتخذ الشعر وسيلة لإظهار علمه فسد شعره وإذا ترك نفسه على طبيعتها وأخضع علمه لفنه فهو يخرج لنا شعرا قويا جميلا. فعقلية العالم تختلف تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر. وفى تاريخ الشعر العربى ما يمثل ذلك كله فلا شك أن تقدم الثقافة الإسلامية وانتشارها بين الناس ورقى العلوم نفسها كان لها شأن كبير فى تكييف طبيعة الشعراء وصبغهم بصورة العصر وثقافته. فشعراء القرن الثانى للهجرة مثلا كانوا على حظ من الثقافة لم يبلغه الشعراء الذين سبقوهم وتغير شعر القرن الثانى تبعا لثقافة الشعراء فبشار بن برد والحسن بن هانئ كانا يجادلان فى الفلسفة والكلام ولكن هذين الشاعرين مع أنهما تحدثا عن بعض الآراء الفلسفية والعلمية استطاعا أن يُخْضعا علوم الفُلسفة لفنهما الشعرى. ونحن نقرأ شعرهما فلا نكاد نشعر أننا نقرأ رأيا فى الكلام أو مذهبا فى الفلسفة لأن مقدرة الشاعرين وفنهما استطاعا أن يُخْضعا العلم للفن وطبيعة الشاعرين صرفتهما عن العلم إلى الشعر ولكنهما استفادا مما أخذاه من ثقافة فإذا فى شعرهما جمال لا نجده عند عالم متشاعر كبشر بن المعتمر المعتزلى المتوفى سنة ٢١٠ هـ. ذلك أن بشارا وأبا نواس لم يتخذا العلم غرضا من أغراض الشعر ولم يقصدا إلى أن ينشدا أشعارهما فى لون من ألوان الثقافة لعرضه وتوضيحه. بل كانا يتندران ببعض الآراء ويهاجمان بعض المتكملين.

وفى القرنين الثالث والرابع نجد الشعر العربى قد تطور تطورا آخر برقى الثقافة واتساع مداها ومساهمة الشعراء فيها مع العلماء وأصحاب الفلسفة فلا نكاد نجد شاعرا من فحول شعراء هذين القرنين لم يشترك فى الحركة العلمية وأصبح الشعراء يزينون شعرهم بألوان الثقافة المختلفة ويمزجون علمهم بفنهم الشعرى. وألف الناس هذا المزاج وأعجبوا بهذا الشعر الذى يغذى العقل كما يغذى العاطفة فلم يصبح الشعر شعرا فنيا فحسب كما كان من قبل. بل أصبح الشعر أداة كالنثر يعبر به عن الفلسفة والمذاهب العلمية المختلفة. وتبع العلماء طريقة الشعر التعليمى الذى بدأه أبان بن عبد الحميد اللاحقى وأكثروا من نظم علومهم وقوى هذا كله فى القرن الخامس الذى كادت تستقر فيه العلوم الإسلامية ووضعت الكتب العديدة فى كل لون من ألوان الثقافة فازداد حظ الشعراء من هذه العلوم حتى يخيل إلينا ان الشعراء هم العلماء والعلماء هم الشعراء. فعلئ الشعر بالعلوم وفخر العلماء بإنشاد الشعر كقول المؤيد:

وهاك قريضا فيه علم وحكمة ... وفيه ضياء الرشد أنّى تأملتا

---

(١) ص ٤

ولا نجد بين علماء هذا القرن من يردد قول الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

فالمتنبى وأبو العلاء استطاعا بما اكتسباه من علم أن يأتيا فى شعرهما بحكم وأمثال وسمو فى الخيال لم يستطع أن يأتى بمثلها شاعر كأبى نصر الخبزأرزى أو شاعر كابن لنكك البصرى اللذين لم يأخذا من الثقافة إلا بمقدار يسير فكان شعرهما قريبا من الأسلوب الذى يصطنعه الشعب وملئ شعرهما بالمعانى الشعبية أيضا بخلاف شعر المتنبى والمعرى الذى اضطر الناس إلى أن يتكلفوا ألوانا من الجهد للوصول إلى فهمه وتذوقه بل صار شعرهما وقفا على الطبقة المثقفة الذين أعجبوا بالمعانى والآراء التى أتى بهما الشاعران الكبيران. بجانب ما فى شعرهما من قوة الشاعرية وشدة العاطفة واتساع الخيال.

كانت هذه الثقافة التى انتشرت فى القرنين الرابع والخامس من العوامل التى أثرت أيضا فى فن المؤيد الشعرى كما أثر فى فنه تمذهبه بالمذهب الفاطمى فأنت تستطيع أن تدرك فى سهولة ويسر ما فى شعر المؤيد من الاتجاهات الفلسفية والخلافات الدينية التى كانت منتشرة شائعة فى عصره فلم يستطع المؤيد أن يقرض الشعر دون أن يلم بهذه الألوان من الثقافة وأن يبسطها فى نظمه وتحمل فى ذلك مشقة الصنعة فكلف فنه حمل ما لا طاقة له به وأخضع القصيد لرأيه وعقله فأتت بعض قصائد ديوانه نظما.

لم يرد المؤيد بهذا النظم إلا التعليم. فكما كان أبان بن عبد الحميد اللاحقى معلما لأبناء البرامكة ونظم لهم كتاب كليلة ودمنة ليقربه إليهم. ونظم بشر بن المعتمر قصيدة طويلة أودعها آراءه فى الاعتزال. ونظم الناشئ الأكبر كثيرا من القصائد فى النحو والعروض والاعتزال. كذلك نظم المؤيد عقائد الفاطميين ليقربها إلى نفوس الناس وإلى عقولهم أيضا لأنه كان معلما قبل كل شيء. ويكاد أسلوبه فى هذه القصائد التعليمية أن يكون نثرا لولا القافية ووزن الشعر مع سهولة فى اللفظ. فلولا المصطلحات الفاطمية والتأويل الباطنى التى ملأ المؤيد بها نظمه لكان نظمه أقرب إلى كتابة المترفين الذين ألفوا النعومة فى الحياة واليسر فى كل شيء فاختاروا من الألفاظ أسهلها وأرقها وقعا على الأذن. وكذلك كانت ألفاظ المؤيد لينة سهلة رقيقة. بجانب ذلك كان المؤيد داعية لمذهبه وكان يحب أن ينشر دعوته بين الناس وأن يعلم أتباعه من أمر مذهبه كل شيء وفى الوقت نفسه كان يكره أن يعرف الناس من أمر مذهبه كل شيء ولذلك احتاط المؤيد فى نظمه فلم يظهر العقائد كلها

فى هذا النظم، واتخذ التقية مذهبا له يصون بها أسرار المذهب. فاصنطع المصطلحات الفاطمية التى لا يفهمها كل الناس ودار حول المعانى حتى لا توضح. وأشار إلى الآراء التى يجب أن تظل سرا مكتوما دون أن يبين حقيقتها. وأسلوبه فى ذلك قد انصرف بعض الشىء إلى مذهب بعض الفلاسفة فهو يعرض المسألة أو الموضوع ثم يحاول ويجادل فيه. ويشكك فى آراء المذاهب المختلفة ويتكلف فى ذلك المصطلحات الخاصة بالفاطميين أو بالفلاسفة والمتكلمين. ولكثرة مناظراته مع غيره أثر فى نظمه إذ اضطر إلى أن يتخذ أسلوب أهل المناظرة والجدل ذلك الأسلوب الذى يشكك فى آراء الخصوم ويدافع عن رأيه.

وهنا نقف وقفة قصيرة لنرى الفرق بين المؤيد الذى نظم عقائد الفاطميين وبين شاعرين آخرين مدحا أئمة الفاطميين بالمصطلحات الفاطمية. هذان الشاعران هما ابن هانئ الأندلسى والأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمى. اشترك المؤيد وابن هانئ وتميم بن المعز فى ناحية واحدة هى تأثرهم جميعا بالعقيدة الفاطمية وظهر هذا الأثر واضحا جليا فى شعرهم. أما ابن هانئ فقد شهد أوائل أيام الدولة الفاطمية فى المغرب. فاتصل برابع الخلفاء الفاطميين – فى عهد الظهور – بعد أن عرف أمويو الأندلس تشيعه فاضطر ابن هانئ إلى الفرار من الأندلس وإلى أن يلحق بالإمام الفاطمى بالمغرب ومدح الإمام وصار شاعره، وهو على هذا الوجه يشبه المؤيد الذى نقم منه العباسيون فى المشرق لتشيعه فاضطر إلى الفرار منهم إلى الإمام الفاطمى بمصر. فكلا الشاعرين اضطهد فى بلده والتجأ إلى الإمام محتميا به مادحا إياه ولكن ابن هانئ لم يكن داعيا أو معلما من معلمى مذهبه. فقد غلبت عليه صنعة الشعر وإنشاده فكان كغيره من الشعراء المتكسبين الذين يصنعون الشعر ويجهدون أنفسهم فى تنميقه وزخرفته ثم يعرضون شعرهم على الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ليأخذوا منحهم وعطاياهم. فابن هانئ مدح الإمام المعز كما مدح القواد والأمراء متكسبا بشعره، بخلاف المؤيد الذى لم يمدح إلا الإمام فقط ولم يكتسب بشعره بل دفعه مذهبه الدينى إلى أن يمدح الإمام دون غيره. وابن هانئ كان كغيره من الشعراء أكثر مدحه للإمام كان بالجود والكرم والشجاعة وقوة البأس، إلى غير ذلك من الصفات التى عرفت بين الشعراء المتكسبين فكان يمدح المعز بقوله مثلا:

فى الغيث شبه من نداك كأنما   مسحت على الأنواء منك يمين
أمـا الغنى فهو الذى أوليتنـا   فكـأن جـودك بالجلود رهيـن

وديوان ابن هانئ مملوء بمثل تلك المعانى التى كان الشعراء يكثرون من ترديدها لاستدرار العطاء والنوال. أما المؤيد فلم يذكر مثل هذه المعانى إلا قليلا جدا لأنه لم يكن يطمع فى عطاء أو نوال. ويخيل إلىَّ أن المعز لم يرد بكثرة عطائه لابن هانئ ولم يغدق عليه هذه الأموال التى حدثنا عنها المؤرخون إلا كى يشيد ابن هانئ بملك المعز وأن يتخذ المعز من الشاعر لسانا يدافع به عن ملكه ومذهبه.

وبجانب هذه الصفقات العمة - إن صح هذا التعبير - التى مدح ابن هانئ بها المعز نجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التى خلعها الفاطميون على أئمتهم فقد سمى المعز «وصى الأوصياء».

تــؤم وصى الأوصيــاء ودونــه   صدور القنا والمرهفات البواتك

نعته بهذه الصفة مبالغة فى تعظيمه بينما المؤيد لم يلقب إمامه بالوصى محتفظا بالوصاية لعلى بن أبى طالب دون غيره من أبنائه الذين كانوا أئمة فقط، ولهذا قال المؤيد للإمام إنه «ابن الوصى».

بنو وصى سل روح الكفر من   أحشائه بصارميــه حين سل

وقوله:

وابن الوصى المرتضى ويمينه   وحسامه يوم الوغى وسنانــه

فكأن ابن هانئ ذهب به مذهبه الشعرى فى المبالغة إلى أن يضيف إلى الإمام صفات ليست له. وكذلك قول ابن هانئ إن المعز هو الصمد فى قوله:

رأى أن سيسمى مالك الأرض كلها   فلما رآه قــال ذا الصمــد الوتــر

وأرجح أنه لم يأت بلفظ الوتر إلا للقافية ولو لم تكن القافية لأتى بلفظ القرآن «الأحد الصمد» وكذلك وصفه للإمام بصفات الله تعالى التى وصف بها نفسه فى القرآن الكريم كقوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

قد يكون لابن هانئ بعض الأعذار فى أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات. فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه الصفات عن الله تعالى وقالوا إنها صفات المبدع الأول الذى هو

ممثول الإمام ولهذا مدح ابن هانئ إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية. وكذلك فعل المؤيد أيضا فى شعره، ولكن المؤيد كان حريصا على أن لا يذهب الناس فى تكفيره ما ذهبوا فى ابن هانئ كما كان حريصا على ألا يتهم الناس مذهبه إذا سمعوا مثل هذا القول قبل أن يدركوا تأويله. ولذلك لم يأت المؤيد فى ديوانه بوصف الإمام باسم من أسماء الله كما فعل ابن هانئ بل كان يصف إمامه بصفات العقل الأول التى لا يستطيع أن يفهمها على حقيقتها إلا الفاطميون وإذا قرأها غير الفاطميين لا يجدون فى قوله ما يدعو إلى رميه بما رمى به ابن هانئ. فمن هذه الناحية ظهرت حكمة المؤيد وبعد نظره فقد جمع بين ما أراده من مدح إمامه وبين البعد عن إثارته الظنون والشبهات حوله وحول مذهبه كتلك التى أثارها ابن هانئ. فمثلا أراد ابن هانىء أن يذكر أن الإمام خلق من نور الله فتورط فى ذلك وقال:

وما كنه هذا النور نور جبينه ولكن نور الله فيه مشـــــارك

تورط فى هذا المدح لأنه أشرك الإمام بالله إذ جعل الإمام يشارك الله فى ذلك النور حتى إذا كان ابن هانئ أراد أن الإمام له حظ ونصيب من نور الله فهو لم يوفق فى ذلك لأنه أتى بلفظ «مشارك» مما يجعل المعنى مشتبها. أما المؤيد فأراد أن يمدح إمامه بنفس المعنى الذى قصد إليه ابن هانئ فقال صراحة:

من نور ربى خلقوا طابوا وطاب الخلق

فوفق فى ذلك أكثر من ابن هانئ. كذلك نستطيع أن نقول عن كل المعانى الفاطمية التى ذكرها ابن هانئ فى ديوانه. فقد ذكر ابن هانئ كثيرا من عقائد الفاطميين كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر. وأن الدنيا خلقت للإمام كما خلق الجسم للنفس وأنه معصوم. إلى غير ذلك من الصفات الكثيرة التى نجدها متفرقة فى شعره، ومع ذلك كان ابن هانئ يختلف عن المؤيد فى نظمه للعقائد فابن هانئ كما قلت كان شاعرا قبل كل شىء ولم يبسط العقائد كما بسطها المؤيد. ولم يجادل المذاهب الأخرى بحجة المنطق كما جادلها المؤيد. ولم يستطع ابن هانئ أن يتغلغل فى أسرار الدعوة ويطلع عليها وعلى دقائقها كما اطلع المؤيد لأن ابن هانئ كان كل همه أن يضمن شعره بعض المصطلحات الفاطمية حتى تعلو مرتبته ومكانته عند المعز. والمؤيد كان معلما قبل

كل شيء قصد نظم العقائد للدعوة والتعليم بخلاف ابن هانئ الذى ذكر هذه العقائد فى شعره لينتفع بأموال الإمام. فبينما كان المؤيد فى أكثر قصائده يطنب فى ذكر العقائد حتى كان يلهيه ذلك عن ذكر الإمام كان ابن هانئ يتفنن فى مدح الإمام ويحاول أن يجد الألفاظ التى يمدح بها الإمام. فكثيرا ما تمر بأبيات متتالية عديدة ليس بها شيء من المعانى الباطنية بل نجد بعض قصائد لم يذكر ابن هانئ فيها أى معنى من المعانى الباطنية بل لا تظهر هذه المعانى إلا بقدر ولا سيما فى القصائد التى مدح فيها المعز أو يحيى بن على ابن حمدون الذى وصفه ابن هانئ بالدعوة. أما عند المؤيد فلا نجد قصيدة من قصائده لم يضمنها المصطلحات والعلوم الباطنية.

وبينما غلب أسلوب الشاعر الصانع على ابن هانئ نجد المؤيد قد غلب عليه أسلوب العالم ومع ذلك فالمؤيد كان يصطنع الألفاظ السهلة القريبة إلى السمع وإلى الذوق بخلاف ابن هانئ الذى كان يعتمد الإكثار من الغريب واستعمال الألفاظ الضخمة التى لا تتفق مع ما كان عليه شعر القرن الرابع من سهولة ولين.

أما تميم بن المعز فهو كما نعلم من بيت الخلافة الفاطمية. كان أبوه إماما من أئمتهم وكان أخا لإمام من أئمتهم. بل كانت الإمامة ستئول إليه بدل أخيه العزيز بالله. لو لم ينص المعز على أن يليها العزيز(١) فلم يهتم الأمير تميم بالخلافة ولم يقم وزنا للملك. وتفرغ إلى ما كان يتفرغ إليه الأمراء الزاهدون فى الملك فعكف على اللهو والمجون وإنشاد الشعر. وأكثر فى شعره من الحديث عن اللهو والمجون ووصف الشراب والقصف. وأولع بوصف الطبيعة وبجمالها. أما المعانى الباطنية والعقائد الفاطمية فكان يلم بها إلماما يسيرا عندما كان يمدح أخاه العزيز ولكنه لم يكثر منها كما أكثر ابن هانئ والمؤيد ولم يذكر المعانى الباطنية الخالصة التى أتى بها ابن هانئ والمؤيد. ليس معنى ذلك أن الأمير الشاعر لم يكن على علم بالعلوم الباطنية والمعتقدات الفاطمية بل كان يستطيع أن يأتى منها بما يعجز عنه غيره من الشعراء والعلماء ولكنه لم يشأ أن يكون كغيره من الشعراء المتكسبين الذين كانوا يذكرون الآراء الفاطمية تقربا بها إلى الأئمة. فلذلك مدح أخاه بالمعانى المألوفة التى كان يرددها الشعراء كما مدحه ومدح نفسه بأنه من نسل النبى والوصى والبتول:

فيابن الوصى ويابن البتول ويابن نبى الهدى المصطفى

(١) جاء فى سيرة الأستاذ جوذر أن الأمير تميم كان أكبر سنا من العزيز وأن الناس كانوا يظنون أن نص الإمامة له ولكن المعز نص على العزيز لما عرف عن تميم من مجون وعبث وبعد عن الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها الإمام

ويابن المشاعر والمروتين ... ويابن الحطيم ويابن الصفا
لك الشرف الهاشمى الذى ... يقصر عنه علا من علا

كما أكثر من القول بأن طاعة الإمام واجبة. وأن الإمام حجة الله فى عباده. ومع ذلك فتميم لم يجعل العقائد أصلا فى مدحه. ولم يرتق بالمعانى الفاطمية إلى دقائقها وأسرارها كما فعل المؤيد. فمن السهل اليسير أن يمدح كل علوى بالقصائد التى أنشدها تميم فى أخيه العزيز. بينما لا نستطيع أن نمدح بقصائد ابن هانئ والمؤيد إلا أحد أئمة الفاطميين. ونهج الأمير تميم فى شعره منهج القدماء الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالغزل والخمر إلى غير ذلك من المقدمات التى اعتادها الشعراء. وكان يطيل فى هذه المقدمات تطويلا يبعده عن غرضه من القصيدة حتى أخذ عليه المؤيد ذلك كما أخذ عليه مدحه للعزيز بالحسن والجمال. فقد مدح الأمير تميم أخاه بقصيدة نونية مطلعها:

أسرب مَهاً عنَّ أم سرب جِنَّه ... حَكَيْتَنهُنَّ وَتسْتُنَّ هُنَّه(١)

---

(١) قصيدة الأمير تميم كما جاءت فى ديوانه المخطوط بليدن والنسخة الخطية التى بمكتبى ومقارنتها بما فى دمية القصر ص ٣٨:

أسرب مها عنّ أم سرب جنة ... حكيتنّهنّ ولستن هنه
أأنتن أنجم ذا الجو أم ... بروج النجوم جلابيبكنه
فضحتن بالحسن أدم الظبا ... وعبتن فيه الثباء كنّه
م أر غيدا سواكن مسن ... فأشبهن من لينهن الأعنه
غصون تقسمن شمس الضحى ... وكثبان خبت وصبغ الدجنه
حملن محاجر عين المها ... وأبدين ألحاظ اظلاتهنه
فيا ما أعيذب ألفاظهن ... ويا ما أميلح ألحاظهنه
إذا رمن ظلما فسلطانهن ... علينا ملاحة أحداقهنه
برزن لنا عاطرات الجيوب ... بنفح الكثيب فؤادى بونه
فعطرن من طيبهن النسيم ... وأبدين من لوعتى المستكنه
ولما سفرن صبغن الضحى ... بماء الخدود وتوريدهنه
فلله هاتا غداة انقضت ... بطاعتنا وبعصيانهنه
وصهباء تغدو لشرابها ... إذا ابتكروها من الهم جنه
تطوف علينا بأقداحها ... حسان حكتهن فى بشرهنه
نواعم لا يستطعن النهوض ... إذا قمن من ثقل أردافهنه
حسن كحسن ليالى العزيز ... وجئن ببهجة أيامهنه
إمام يضن على عرضه ... ولا يعتريه على المال ضنه
فسل هل غدت قط أمواله ... وأمسين من جوده مطمئنه
وهل أبصرت قط أرماحه ... عيون الورى غير حمر الأسنه

وعارضه المؤيد فى القصيدة الثانية والعشرين وختم هذه القصيدة بأنها جواب قصيدة الأمير تميم التى بدأها بالغزل وبالحديث عن الخمر كعادته حتى بلغ حديثه عن ذلك نحو نصف القصيدة بينما بدأ المؤيد قصيدته بمدح الإمام مباشرة. وأكثر المعانى التى ذكرها تميم فى قصيدته أخذها المؤيد ودار حولها. وردد المؤيد فى عدة أبيات المعنى الذى ذكره تميم فى بيت واحد من ذلك قول تميم:

كلا راحتيك ندى أو ردى　　　كأنـك للنـاس نـار وجنـة

فأتى المؤيد بنفس المعنى ولكنه أراد أن يفصله ويبين لمن تكون النار ولمن تكون الجنة فقال:

إمام هو النار للكاشحين　　　كما أنه للموالين جنـــة

ثم نجد المؤيد بعد أن قال ذلك المعنى تركه إلى غيره ثم عاد إليه مرة أخرى فذكر فى بيتين حال معادى الإمام وما سيلقونه فى النار كأنه قاص يعظ الناس ويخيفهم بذلك العذاب إن لم يتبعوا الإمام.

ومعنى آخر أخذه المؤيد فى هذه القصيدة من تميم وأخذه تميم من أبى نواس قوله:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه　　　لتهابك النطف التى لم تخلق

ولكن كان الأمير تميم أقل مبالغة من أبى نواس فقد جعل الأجنة فى بطون الأمهات هى التى تخاف من الإمام.

وأمضيت عزمك حتى أخفت　　　به فى بطون النساء الأجنــة

= سحائب كفيه منهلة　　　علينا بمعروفه مرجحنه
تعالى بـرار عن النجوم　　　ونلن من المجد ما لم يبلغنه
كلا راحتيك ندى أوردى　　　كأنك للناس نار وجنه
إذا قال اتبعه بالفعال　　　وإن جاد لم يتبع الجود منه
فلولاك لم يغد فينا الهدى　　　منيرا ولم يصبح العفو سنه
منعت الخلافة منع الأسود　　　إذا ما غضبن لأشبالهنه
وأمضيت عزمك حتى أخفت　　　به فى بطون النساء الأجنه
يليق بك الملك حسنا كما　　　تليق المعالى بأربابهنه
وإنى وإن كنت نجل المعز　　　لعبدك والحق ما إن أكنه
يرى الخير من أضمر الخير فيك　　　وجوزى بالشر من قد أكنّه

أما المؤيد فقد أشفق على النطف أو الأجنة من بطش الإمام وعزمه. وعز عليه أن يقول إن النطف أو الأجنة تخاف بل لم يعجبه أن الأجنة تخشى شيئا. ولذا كان رءوفاً بالأجنة فحوّر المعنى فقال إن الأجنة تعترف بفضل الإمام وبأياديه عليها:

إمـام يعبـر عمـا لــه من الفضل والمأثرات الأجنة

وهكذا أجاب المؤيد فى قصيدته على قصيدة الأمير تميم فدار حول معانيها حينا. وحوّرها حينا آخر.

الفصل الثانى

شعر المؤيد

بجانب هذه الصنعة التى تظهر فى نظم المؤيد وهذا الجهد الذى كلف نفسه مشقة فى نظم عقائد الفاطميين ورده على المذاهب المختلفة. نجد المؤيد أحيانا قد أرسل نفسه على طبيعتها فحدثتنا عواطفه - لا عقله - وخاطبنا شعوره وإحساسه - لا علمه -. فأتى ببعض أبيات نستطيع أن نسميها شعرًا لأنها صادرة عن طبيعة الشاعر وإلهامه. ونحن نقرؤها فنحس بإحساس الشاعر نفسه ومشاعرنا تشارك الشاعر فى تأثره فنرثى له كما رثى نفسه. فى مثل هذه الأبيات فقط التى يتحدث الشاعر فيها عن نفسه يظهر فن المؤيد الشعرى واضحا جليا، فقد ترك نفسه على سجيتها وشعر وأحس، وأنشد شعرا فيما شعر وأحس. ولم يتكلف فى هذا الشعر العناء الذى لقيه فى النظم. فنحن نلمس فى ديوان المؤيد لونين من الفن: أولا النظم أو الشعر التعليمى، ثم فن الشعر الخالص الممزوج بالزينة البديعية. وإذن كان للمؤيد شخصيتان، شخصية الناظم الذى أراد أن يودع علمه ومذهبه فى قالب الشعر فأخرج لنا نظما لا غناء فيه من الناحية الفنية. وشخصية الشاعر الذى أراد أن يودع عواطفه وإحساسه وشعوره فى شعره. فديوان المؤيد الذى ننشره الآن مزيج بين إنتاج دراسته الفلسفية والدينية وعقله الفلسفى ثم إنتاج خياله الشعرى، ومن المسلم به أنه من الصعب التوفيق بين الخيال والعلم، ولذا تكلف المؤيد مشقة فى سبيل التوفيق بين الخيال والعلم. ولذا تكلف المؤيد مشقة فى سبيل التوفيق بينهما فأنتج عقله هذا النظم. وأنتج خياله هذه الأشعار التى جعلها فى كثير من القصائد مقدمة لإنتاجه العقلى.

أول ما نلمس من شعر المؤيد هو أن المؤيد كان ذاتيا كثير التحدث عن نفسه حتى يخيل إلينا أنه لم يفكر إلا فى نفسه، وأنه كان منصرفا عن كل شىء حوله وكل شىء أحاط به فلم يأبه بالطبيعة فلم يصف البادية التى قطعها أثناء فراره من شيراز وسفره إلى مصر أو فى سفره من مصر إلى العراق كعادة الشعراء الذين وصفوا رحلاتهم. فأبو نواس والمتنبى وصفا رحيلهما إلى مصر. ولكن المؤيد وصف نفسه فقط أثناء الرحيل. ولم يصف المؤيد المتنزهات والبساتين التى كانت بمصر كما وصفها الأمير تميم وأبو العباس المصرى وابن

حيدرة العقيلى وغيرهم من شعراء الفاطميين. وإنما صرف المؤيد عن ذلك كله وجعل كل همه ينصرف إلى نفسه فصور لنا شيئا من حياته الخاصة وشعوره نحو هذه الحياة التى أرغم عليها واضطر إلى أن يحياه. وهو فى مدحه للإمام أو لأهل البيت لا ينسى نفسه أيضا فهو يذكر نفسه دائم معهم يعدد ما آثره وما قام به آباؤه فى سبيل الدعوة، ويختم قصائده بذكر اسمه كعادة شعراء الفرس. فشعر المؤيد إذن شعر شخصى يمثل الشاعر العاطفى الذى ابتلى بمحن وآلام فجرت على لسانه بالشعر. فهذه الأبيات الكثيرة التى تتحدث عن الشقاء الذى أحاط به والآلام التى منى بها وتقلبات الدهر به تشعر القارئ أنه أمام رجل بائس حقا امتلأ قلبه بالحزن وتقاسمته الهموم فيشفق القارئ على الشاعر ويتألم لما حل به. والمؤيد لا يحدثنا عن هذه المحن والآلام بعقله الفلسفى أو بعلمه الغزير بل إن عاطفته صبغت شعره بصبغة شعوره بالآلام وذهب به خياله فى تصوير آلامه إلى درجة أبعدته عن الحقيقة الواقعة بل غلا فى التعبير غلوا كبيرا. انظر إلى قوله:

قد كنت أفترس الأسود بفارس   والآن تنهض لافتراسى الشاء

انظر إليه وقد ارتفع به خياله فوصف نفسه فى الشطر الأول بالشجاعة والإقدام حتى أنه كان يفترس الوحوش الضارية ولم يشأ الشاعر أن يقول إنه كان يصيد الأسود بل اختار لفظ افترس ليؤدى إلى معنى أشد فتكا من الصيد. وفى الشطر الثانى غلا فى وصف بؤسه وضعفه واضمحلال أمره حتى إن الشاة وهى من أضعف الحيوانات الأليفة تستطيع بسهولة أن تفترسه. ثم انظر إلى قوله:

فالطير إن طار صرت مرتجفا   والطيف إن طاف أنزوى ألما

فهو هنا يصور لنا نفسه المرتجفة المضطربة التى تخاف من كل شيء وتضطرب لكل شيء فإن حوم الطير حوله انتفض فزعا وخوفا وامتلأ رعبا. وإن ألم طيف أو مر به خيال فزع وجزع وهذا لا شك غلو من المؤيد فى وصف حاله وما هو فيه من بؤس وشقاء.

كان المؤيد منغصا فى حياته كما حدثنا بذلك فى شعره. وأكثر من ترديد ما فعل به الدهر وطبيعى أن عقله وتعمقه فى دراسة المذاهب المختلفة ليست السبب الذى من أجله كان منغصا فى حياته. فهو لم يكن شاكا فى الأديان ولم يكن شاكا فى أمر النفس بعد الموت بل كان مطمئنا أشد الاطمئنان إلى مذهبه الذى اعتنقه. وإلى أن نفسه خالدة

غير فانية بعد الموت وأن جسده البالي هو الذى سيفنى. فلم يظهر لنا فى شعر المؤيد هذه الأسئلة التى كان أبو العلاء المعرى يسائل نفسه عنها ويكثر من التفكير فيها والحديث عنها. ولم يكن لعقله أو لفلسفته أثر كبير فى شكواه التى بثها شعره. وفى حزنه الذى لزمه أكثر أيام حياته. إنما الذى كان ينغص على المؤيد حياته هو الوسط الذى عاش فيه. والبيئة التى أحاطت به. بل ظروف حياته نفسها هى التى سببت آلامه. وكانت هذه الآلام مصدرا لشعر المؤيد الرقيق. فقيام أهل السنة ضده وسعيهم إلى الإيقاع به والنيل منه. وقيام السلطان العباسى ضده. وعدم وجود نصير له أو مدافع عنه فى بلاده. حتى اضطر إلى الفرار من بلده. كل ذلك سبب للمؤيد آلاما شديدة. ثم نظر إلى نفسه بعد وفوده على مصر فوجد نفسه حرا ولكنه فى أسر. طليقا ولكنه فى قيود. كان يخيل إليه أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا ولا أن يتحرك خطوة. وتنكر له أهل شيعته وعملوا على حرمانه مما هو أهل له وما كانت تصبو إليه نفسه. كل ذلك كان له أثر كبير فى نفس المؤيد وكل ذلك أوحى إلى المؤيد أن ينشد هذه الأشعار التى نراها فى ديوانه ويخيل إلىّ أن المؤيد كان سريع التأثر والانفعال ولكنه كان يضطر أحيانا إلى أن يضبط نفسه فكان يصطنع الحلم فى الوقت الذى كان يتكاثر حوله الأعداء كما فعل فى مناظرته مع العلوى أمام أبى كاليجار وكما فعل فى محاوراته مع رؤساء العرب فى مؤامرة البساسيرى. وكان سريع التأثر والانفعال إذا خلا إلى نفسه أو وجد نفسه مع قوم اعتقد أنهم أقل منه ولكنهم أصبحوا سادة بحكم الظروف التى ساعدتهم ومثل ذلك معاملته مع الوزراء المصريين. كل ذلك كان سبب شكوى المؤيد ومصدر آلامه وبكائه. وإذن فهو سخط على الحياة وطلب الموت والراحة من هذه الحياة فذلك من ناحيتين إحداهما دينية خالصة دان بها مذهبه واعتقدها كل أبناء شيعته الذين كانوا يرحبون بالموت وينشدون الخلاص من الحياة الدنيا. لأن الحياة هى سجن المؤمن وجنة الكافر وأن النفس وهى نور روحانى تكون فى الحياة رهينة محبس الجسم البالى الترابى بينما تنتقل بعد الموت إلى عالمها الروحانى بين الأرواح فى عالم القدس فتصبح مؤثرة فى الأجرام بعد أن كانت متأثرة بالأجرام ولهذا نرى المؤيد قد قال مثلا:

ريحانتى المـــوت وبـاب أمنـــى إذ كنت أرجو مخلصى من سجنى

أما الناحية الثانية فهى أنه كان يريد أن يتخلص من حياته التى سببت له الآلام وجلبت عليه المصائب المختلفة. فكان يتغنى فى شعره بطلب الموت ليريح نفسه حتى تبلغ مرتبتها فى العالم العلوى ويستريح هو من آلامه التى كان يشعر بها ويقاسى أهوالها.

على أنه يخيل إلىّ أن هذه المصائب التى منى بها المؤيد والتى كانت مصدرا لفن المؤيد الشعرى إنما توالت على المؤيد من المؤيد نفسه. ذلك أن المؤيد شقى زمنا طويلا بعلة الطمع والطموح إلى مرتبة الدعوة التى كانت تفر منه كلما اقترب منها. وقد تكون علة طمعه هذه نتيجة لتعاليه على معاصريه وغروره بنفسه ومنه على الإمام وعلى المذهب الفاطمى بخدماته فى سبيل نشر الدعوة. فقد كان يعتقد أنه أجدر معاصريه جميعا بمنصب داعى الدعاة، وأنه أعلاهم كعبا فى خدمة إمامه ومذهبه. وذهب به غروره بنفسه إلى التكبر على الوزراء والقضاة والدعاة، وكان هؤلاء جميعا يعرفون أن المؤيد أحقهم جميعا بمنصب الدعوة ويعترفون فيما بينهم وبين أنفسهم أنه جاهد فى سبيل المذهب أصدق الجهاد. لذلك كله كانوا يخشون بأسه ويخافون على مراكزهم منه فكانوا يدارونه حينا ويظهرون الموجدة عليه حينا آخر. يقربونه طورا ويضطهدونه طورا آخر. وكان المؤيد فى هذه الأطوار يظهر العجب بنفسه ويتحدث عن علمه وجهاده حديث رجل مغرور مفتون بنفسه. فكان ذلك الغرور من أشد أسباب شقائه. ولو ترك المؤيد غروره وكبرياءه لاستراح من العناء الذى قاساه ومن البكاء الذى اشتفى به ولأراح من كان حوله من ذوى السلطان ولعاش منعما فى بلاده. ويظهر فى شعره وفى سيرته أيضا ذلك الغرور حتى ذهب به ذلك إلى أنه كان يفاخر بنفسه وهو يشكو ويبكى. ويعدد مناقب نفسه ويمن على الإمام فى الوقت الذى يظهر فيه استكانة وضعفا.

ومن الغريب أن آلام المؤيد لم تذهب به إلى أن ينقد الناس فى أحوالهم وطبائعهم. فلم يحدثنا عن الناس كما حدثنا أبو العلاء فى لزومياته. وكل الذى ذكره المؤيد فى نقد الناس كان عن عقائدهم ومذاهبهم الدينية ونقد هذه العقائد والمذاهب. أما أحوال الناس الاجتماعية وضروب معيشتهم فلم يعرض لها المؤيد. كذلك لم يهجُ المؤيد شخصا بعينه إلا خلفاء أهل السنة وابن المسلمة وهجاهم لأنهم أعداء أئمته. أما عداوته لابن المسلمة فهى قاسية باقية لم يستطع المؤيد أن ينتزعها من قلبه طول حياته. بل عجز موت ابن المسلمة عن محوها. فقد تشفى المؤيد منه وتحدث عن صلب ابن المسلمة على الصارى وقتله على الصورة التى صورتها لنا كتب التاريخ. وحديث المؤيد عن ذلك حديث رجل مسرور فرح لموت خصمه على هذه الصورة مما يدل على أن عداوته لابن المسلمة كانت عنيفة جدا. والمؤيد ذكر ابن المسلمة فى شعره مرارا ملقبا «بابن دمنة» متخذا هذا اللقب من صفة دمنة

فى «كتاب كليلة ودمنة». ولعل قصة ابن المسلمة مع المؤيد فى شيراز ثم اضطهاد ابن المسلمة للشيعة عامة حتى أمر بنبش قبر موسى الكاظم على نحو ما حدثنا به المؤرخون وذكره المؤيد فى شعره. وسعى ابن المسلمة لدى المعز بن باديس صاحب القيروان لترك الدعاء للمستنصر الفاطمى. كانت هذه كلها سبب هذه العداوة الدفينة فى نفس المؤيد حتى امتزجت هذه العداوة بدمه. حتى خيل إليه أن يد ابن المسلمة امتدت إلى كل حادث ضد الفاطميين ولذا تشفى المؤيد فى هذا الرجل وأظهر فرحه لموت خصمه وعدوه ولم يتورع أمام الموت عن إظهار هذا الفرح.

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن المصدر الأول لفن المؤيد الشعرى هو حياة المؤيد ونستطيع أيضا أن نقسم شعر المؤيد إلى أطوار حياته أو إلى البيئات التى عاش فيها المؤيد. فحياته كما رأينا ثلاثة أطوار أولها حياته فى فارس. وثانيها حياته أثناء فراره. وثالثها حياته فى مصر. وقد رأينا كيف اختلفت حياته فى كل طور من هذه الأطوار اختلافا بينا. وكذلك اختلف شعره بين هذه الأطوار باختلاف مزاج الشاعر وتقلبه بين الرضى والسخط وبين السعادة والشقاء.

كان فى فارس يقيم مستقرا هادئا عزيز الجانب موفور الكرامة يخشاه السلطان والعامة ويحبه أتباعه وعشيرته واعتز هو بشيعته فقوى بهم فلم يخش شيئا. فظهر شعره فى هذا الطور صورة لهذه الحياة الرغدة ولشخصيته القوية. فوصف نفسه بالقوة والإقدام حتى بلغ به غلوه إلى أن قال إن الدهر كان يخشى سطوته وجبروته فلم يخضع لسلطان مسيطر. وأنه ناضل أعداءه بالسيف وناضلهم بالنظم وبالنثر فانتصر عليهم. وتحمل المصائب بصدر رحب وقلب قوى ولم يجبن أمام غلبة المتغلبين فدافع عن نفسه وعن عشيرته ومذهبه. فكان شعره فى ذلك كله شعر حماسة فيه روح القوة والعزم وفيه الفخر بعلمه وبدينه وبشعره وبخطبه، فهو معتز بذلك كله وكرر هذه المعانى:

ويد لم تـزل تصـــول ببـــأس ... كم ثنى دونها العنان الخطوب
ولسان فى حلبة النظم والنثـــر ... بأبكار كـــل معنـــى لعـــوب
وجنــان يلقى المنايــا كفاحــا ... ويلاقى الضرغام وهـو غضـوب

فهو فى هذه الأبيات وما شاكلها فى ديوانه يصف شجاعته وإقدامه ويحدثنا عن نفسه القوية رابطة الجأش التى لا تأبه بالأحداث والخطوب بل تضطر الخطوب إلى الابتعاد عنه خوفا من سطوته وجبروته. ويصور بلاغته فى الشعر والنثر. فيصف نفسه شاعرا

يتلاعب بالمعاني الجديدة التي لم يطرقها شاعر قبله. ويصف نفسه خطيبا مفوها يأسر لب السامعين ببيانه. وانظر إليه مرة أخرى وهو يصف نفسه بذلك كله:

جسمى حمول للنوائب كلها   لكن لى فى الجسم قلب غضنفر
ما راعنى من صائل صول ولا   ضعفت قوى جلدى لبأس مسيطر

فتصور هذا الرجل الذى يتحدى النوائب كلها. وأنه يتحمل المصائب كلها دون ضعف أو تذمر. فهو قوى شجاع كالأسود وهو لذلك لم يجبن أمام أحد ولم يخضع لصاحب سلطان. فهذه الأبيات وأمثالها التى أنشدها فى فارس تصور شخصية المؤيد القوية وتمثل حياة رجل مطمئن إلى نفوذه وقوته.

وفى فارس نجد ناحية أخرى فى فن المؤيد ذلك أنه كان مطمئنا إلى حياته ولم يصب بعد بما آلمه وأثار حزنه وشجونه وكان يشغل أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الجزيرة. فقد كان حجة فارس وكبير دعاتها فغلبته طبيعته كمعلم واضطره منصبه الدينى الخطير إلى أن ينظم تعاليم مذهبه. فأكثر المنظومات التى تحدث فيها المؤيد عن عقائد الفاطميين إنما قالها وهو فى فارس. فإذا تصفحنا ديوان المؤيد نجد أن القصيدة الأولى قيلت قبل وفاة الظاهر سنة سبع وعشرين وأربعمائة من الهجرة. فقد ذكر المؤيد نفسه مقرونا بالإمام الظاهر:

نظم ابن موسى وهو عبد الظاهر   ذاك الإمام ابن الإمام الطاهر

وكان المؤيد فى ذلك الوقت فى فارس. وكذلك نقول عن القصيدة الرابعة وغير ذلك من القصائد التى أكثر فيها من الحديث عن العقائد فقد أنشدت كلها فى فارس قبل أن يصاب المؤيد بالمحنة. وفى هذه القصائد كلها التى أنشدها فى فارس لم يشر المؤيد إلى بؤسه وشقائه. إنما تغنى دائما بنفسه وبقومه.

ثم بعد ذلك كله يظهر أثر فارسية المؤيد فى ذكر اسمه فى آخر كل قصيدة وهو ما يسمى فى الأدب الفارسى بالتخلص وهذا الفن وجد فى فارس منذ أول ظهور الشعر الفارسى ونجده عند شعراء الفرس فى القرن الرابع الهجرى وما بعده وأخذه المؤيد عنهم. ولا أكاد أعرف شاعرا من شعراء العربية اتخذ هذا الفن فى شعره قبل المؤيد. فإن صح أن شعراء العربية لم يذكروا أسماءهم فى الشعر إلا فى العصور المتأخرة. فيكون المؤيد أسبق شعراء

العربية إلى نقل هذا الفن من الفارسية إلى العربية. ثم نراه أيضا قد استعمل بعض ألفاظ فارسية كقوله:

إني اعتصمت بحبل آل محمد في الديـن والدنيـا بشاهنشـاه

فكلمة شاهنشاه ليست عربية. وأحيانا كان يستعمل بعض المعانى الفارسية التى لا أذكر أنى وجدت مثيلا لها فى الشعر القديم كقوله:

ظهر العدل فى محل مام وغدا فى ضرائع الأنعـام

يقول الشاعر إن عدل الإمام شمل جميع أوليائه وانتشر وعم البلاد حتى إن البهائم قد امتلأت ضرائعها باللبن من كثرة غذائها ووفرة الخصب فى البلاد. هذا المعنى لا أكاد أجد له مثيلا فى الشعر العربى قبل المؤيد ولكنه كثير جدا فى الأدب الفارسى[1].

وإذن ففارس كان لها أثر فى تكييف شعر المؤيد وتوجيهه إلى ناحية خاصة هى هذه الناحية التى أشرنا إليها ومع أن المؤيد فى شعره لم يحدثنا عن البيئة التى كان يعيش فيها. فإننا نستطيع بسهولة ويسر أن نتعرف على أشعاره التى أنشدها فى فارس.

أما الطور الثانى وهو حياته بعد أن ترك فارس وقبل أن يصل مصر فقد ظهر فى شعره أنه اختلف تمام الاختلاف عن المؤيد الذى رأيناه فى فارس. فهو فى هذه المرحلة من حياته رجل خائف يترقب أن يأخذه أعداؤه من كل جانب متحير فى أمره لا يدرى إلى أى صوب يتجه. ذليل فى غربته ضعيف بوحدته. شاحب اللون من كثرة آلامه وشقائه. يبكى طول النهار ويأرق بالليل يذكر حياته فى فارس بين إخوانه وعشيرته فيندب سوء حظه ويشكو الدهر وتقلباته. وشعره فى هذا الطور يمثل الرجل الضعيف الجبان خائر العزيمة الذى لا حول له ولا قوة فلم يجد بدا من الاستغاثة والتضرع. فاستغاث بالإمام وناشده أن يشد أزره ويكشف عنه الضر. ووقف على قبر عليّ بن أبى طالب بالكوفة مستغيثا به كى ينصره على أعدائه وينتقم له. وأخذ يناجى الله ويتضرع إليه أن يحميه مما أصابه. قال ذلك كله فى صور شعرية جميلة تشعر القارئ أنه يستمع إلى أنات رجل بائس امتلأ قلبه بالوحدة ووجد نفسه شريدا ضعيفا لا يقابل فى طريقه إلا عدوا. ولا يسمع إلا صوت النذير والوعيد. فقد استطاع أن يعبر عن آلامه فى الحياة. ونظر إلى الحياة فى هذا الطور بمنظار

(١) هكذا أخبرنى زميلى الدكتور إبراهيم أمين مدرس اللغة الفارسية بالكلية.

أسود قاتم وأخذ ينتظر الموت مطمئنا إليه مرحبا به. صور لنا ذلك كله فى صور شعرية يتلو بعضها بعضا فى ألفاظ سهلة يسيرة وأسلوب ممتع عذب جعلنى أقول إن المؤيد فى هذا الطور يمثل الشاعر العاطفى حقا الذى يتحدث عن إلهامه لا عن عقله. ويملى شعره عن وجدانه ويخاطب العواطف ولا أغالى إذا قلت إن أجمل شعره هو ذلك الذى أنشده فى هذا الطور. كان جل هم المؤيد فى ذلك الطور منصرفا إلى الشقاء الذى أحاط به وفى أعدائه الذين أزعجوه عن دياره ولم يفكر إلا فى نفسه وفيما أصابه وفيما قد يصيبه. وفى حديثه عن تقلبات الدهر وصف عواطفه وأحواله الخاصة.

ومع ذلك صور هذه التقلبات كما صورها غيره من الشعراء. فهو هنا يحاكى غيره من الشعراء السابقين الذين ألمت بهم المصائب وتقلبت بهم الأيام وأحيلك على ما جاء فى ديوان المؤيد من حديث عن الدهر فستجد للمعانى التى قالها المؤيد مثيلا فى الشعر القديم. ولكن روُح المؤيد وعاطفته وفنه تظهر واضحة جلية فى شعره. فقد استطاع بمهارة أن يلبس شعره ثوب الحزن الذى لازمه وأن يجعل شعره صورة تكاد تكون ملموسة لشقائه الذى حل به فكثير جدا من الشعراء وصفوا آلامهم ومتاعب حياتهم وتقلبات الدهر بهم ولكن قليلا منهم هم الذين استطاعوا أن يأتو بمثل الصور التى أتى بها المؤيد وبمثل الأسلوب الذى صاغ فيه المؤيد صوره.

أما المؤيد فى مصر أو فى الطور الثالث. فكان يختلف عن المؤيد فى فارس أو المؤيد فى طريقه إلى مصر. فقد قابل مصر فى أول الأمر مقابلة رجل بائس وجد من يلوذ به. كان ضالا فوجد هداه. وكان وهو فى فارس شديد الرغبة فى أن يحج إلى إمامه ويحظى بالمثول بين يديه وها هو قد وجد نفسه فى بلد الإمام ومقره لذلك كله كان شديد الأمل فى أن يجد من إمامه ما هو أهل له. وأن يرفع الإمام شأنه ويقربه ويعز جانبه. فظهر شعره فى أول أيامه بمصر شعر رجل جاء يلتمس الخلاص مما حاق به. مطمئنا إلى أنه سينال بغيته وسيعيش كما كان. مطمئنا فى كنف الإمام. فهو من هذه الناحية وما كان يملأ قلبه من الأمل كان كغيره من الشعراء الذين وفدوا على مصر. فأبو نواس فى شعره للخصيب كان قوى الأمل فى أنه سيصيب من الأمير الثروة والغنى فوصف لنا كيف حاولت صاحبته أن تصده عن الرحيل إلى مصر فلم يأبه بأقوالها وخالفها طمعا فى المال. بينما حدثنا المؤيد كيف أشارت صاحبته عليه بالسفر إلى مصر فقبل مشورتها وعمل بها لأن دينه يأمره بزيارة

الإمام،ولأنه لم يجد سوى الإمام ملاذا يحتمى به. وكذلك كان الأمر مع المتنبى فى وفوده على مصر فقد حاول أصحابه أن يصرفوه عنها ولكنه خالفهم فغرب إلى مصر وشرقوا هم إلى العراق ولم يخالف أبو نواس صاحبته والمتنبى أصدقاءه إلا لسبب واحد وهو الأمل فى الحصول على الأموال الجزيلة وهو أمل يختلف تمام الاختلاف عن أمل المؤيد. الذى لم يقصد إلى مال أو ثروة. كما قصد الشاعران. إنما كان سفره إلى مصر لتخفيف آلامه التى لقيها بعد أن أخرج من دياره ثم دعاه داعى الدين إلى أن يرحل إلى إمامه. ولكنه سرعان ما وجد غير ما كان يطمع فيه إذ انصرف الناس عنه ووجد قلوبا تضمر له الحقد والكراهية ولم يجد من المصريين إلا الاضطهاد والنفور منه. مثله فى ذلك مثل المتنبى فى مصر كلاهما أسرف فى الاعتداد بنفسه. وكلاهما غلا فى حسن الظن بنفسه وبالناس. وكلاهما انخدع لصاحب الأمر بمصر فخاب فألهما وضل سعيهما. فحاول كل منهما أن يترك مصر فمنعا من ذلك. ولكن المتنبى استطاع أن يهرب من الأمير بينما بقى المؤيد يتقلب فى حياته فكان يرتفع حينا حتى أصبحت له مرتبة الدعوة. ويعزل عنها حينا آخر ويطلب إلى الخليفة أن يبعد المؤيد عن مصر. كذلك سخط أبو نواس ودعبل الخزاعى على مصر والمصريين كما سخط المتنبى والمؤيد وخرجا من مصر غاضبين هاجين أمراءها وأهلها كما غضب وهجا المتنبى. أما المؤيد فقد غضب أيضا ولكنه لم يستطع أن يهجو ملك مصر لأن صاحب مصر إمامه. بل أخذ يمن على إمامه فى الدفاع عنه وعن آله والدعوة إلى مذهبه وأخذ يشكو قلة إنصافه بعد أن ضحى بما ضحى به فى سبيلهم وأخذ يلح على إمامه أن يصرف عنه ما حاق به من ظلم وفساد حال:

إنى أتيتك يابن بنت محمد … مستعديا مستغنى الضراء
أأبيت فى البلد الأمين مروعا … وحماك من صرف الزمان وقاء
أينالنى فيك الجفاء مشرقا … وإذا أغرب نحوكم فجفاء

فهو هنا يستعدى الإمام ويرجو حماه ويشكو عدم إنصافه وجفاء الإمام وهذه المعانى نراها كثيرة متفرقة فى قصائده التى أنشدها فى مصر. أما منه على الإمام وعلى الدعوة فقد أسرف المؤيد فى ذكر أثره وأثر آبائه فى نشر الدعوة والذل الذى لحقه فى سبيل ذلك والشقاء الذى منى به بسبب مذهبه:

فيهم لقيت وفيهم ألقى الأذى وأكابد
سل عن مقامي فارسا من كان ثم يجاهد
من معلمن دين الهدى والنور منه خامد

وإذا نظرنا إلى مَنِّه على إمامه فى الدفاع عنه وعن الدعوة على هذه الصورة التى صورها المؤيد في شعره نجد المؤيد قد بعد عن الآداب التى وضعها علماء المذهب الفاطمى نحو أئمتهم. فمَنُّ المؤيد على إمامه وشكواه لعدم إنصافه وأن الإمام لم يضعه فى المكانة اللائقة به كل هذا لا يتفق مع قول القاضى النعمان «ينبغى أن تراض النفوس للأئمة على المحنة والرضا وعند المنع والعطاء وعند أحوال الشدة وفى حالات الرخاء فإن صنعوا (أى الأئمة) صنيع معروف إلى واحد وجب شكرهم عليه ولم ينبغ أن يرى المصنوع به أنه جدير به ولا مستحق إياه ولا أن يستشرف نفسه بعد ذلك إليه[1]». وقول النعمان أيضا فى مكان آخر «وينبغى لمن خاطب الإمام ألا يطرى نفسه ولا يظهر الإعجاب بما فيه ولا ما كان منه[2]» فهل تأدب المؤيد بهذه الآداب التى ذكرها النعمان مع تأثر المؤيد بالنعمان فى كل الآراء المذهبية؟ أظن أن المؤيد كان ضيق الصدر حين أنشد مثل هذه الأبيات حتى نسى أنه إنما يخاطب إمامه، وأن شدة غضبه وحنقه اضطرته إلى أن ينسى كل شىء إلا نفسه وأبى ألا يفكر إلا فى ماضيه وحاضره، أضف إلى ذلك ناحية الغرور الذى كان يلازمه فى كل أطوار حياته حتى جعله يمن على إمامه ومذهبه ويبتعد بعض الشىء عن آداب مخاطبة الأئمة.

ناحية أخرى نراها فى شعر المؤيد فى مصر ذلك أن المؤيد شاهد وهو فى مصر ما كان قد سمعه عن النيل وفيضانه وتمساحه. فذكر ذلك فى الشعر فذكر النيل الفائض كنى به عن النعيم الذى وجده فى مصر، وشبه الإمام بالتمساح فكما أن التمساح يحاول الفتك بكل من يقترب من النيل كأنه يحمى النيل كذلك الإمام يحمى وادى النيل:

وشققت جيب الأرض شقا نحو من وقفت لديه ركائب التأميل
فرأيت نيلا فائضا، تمساحه متشمر يحمى حريم النيل

وهنا نلاحظ الفرق بين أبى نواس عندما ذكر النيل والتمساح وبين المؤيد فأبو نواس حذر من ركوب النيل وخوف من تمساح النيل ولذا نراه قد هجا النيل والتمساح بقوله:

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية إذ قيل لى إنما التمساح فى النيل

(١) الهمة مخطوط ورقة (٦٥)
(٢) الهمة مخطوط ورقة (٦٨)

وكما ذكر أبو نواس فى مصر قصة موسى وفرعون وقال للمصريين أو لأمير مصر «إن عصا موسى بكف خصيب» ، كذلك تذكر المؤيد قحط مصر أيام يوسف الصديق فقال عن نفسه إنه أتى مصر ليكشف القحط عنها ولكنه تدارك هذا القول لأنه لم يبلغ بعد درجة يوسف فيشبه نفسه به إنما دفعه إلى ذلك الغرور بنفسه فتراجع بعد ذلك وقال إن يوسف نفسه أى الإمام فى مصر:

وقمت مطريا فى جسم دين لباسا لا يطريه المطرى
لأكشف قحط مصر – وذاك بدع وهذا يوسف فى أرض مصر

ومن الغريب أيضا أن لا نرى المؤيد قد تأثر بما كان حوله فى مصر سوى ذلك. فلم يذكر شيئا عن الحفلات والمواكب التى ابتدعها الفاطميون فى مصر والتى كانت تدعو إلى أن يشيد بها رجل خدم الدعوة الفاطمية. بينما نجد شاعرا معاصرًا له كان يعتنق نفس المذهب الذى كان يدين به المؤيد أتى مصر فى وقت واحد تقريبا مع المؤيد ووصف مصر وصفا يكاد يكون دقيقًا وتحدث فى شعره وفى نثره عما رآه فى مصر ذلك الشاعر هو ناصرى خسرو الفارسى ولا أدرى كيف لم تثر مصر خيال المؤيد حتى أهملها – ويخيل إلى أن المؤيد ترك ذلك كله وشغله عن ذلك التفكير فى نفسه. وأنه لم يكن بالشاعر الذى يتأثر بالطبيعة وجمالها وأن سعة خياله كانت محدودة. حتى إنه عندما أراد أن يتحدث عن قصر الخليفة لم يستطع أن يصف القصر وأبهته وجلاله بل ترك وصف القصر إلى مدح من بالقصر كأن القصر نفسه لم يثر خياله ويشحذ قريحته أو أنه كان متجها إلى مدح الإمام فلم يجد إلا بيتا واحدا ذكر فيه القصر كمقدمة يصل بها إلى مدح الإمام. وعندما ذكر مجلس الدعوة لم يستطع أن يقول أكثر من اليوم الذى يعقد فيه مجلس الدعوة عيد للمؤمنين يجنون فيه ثمار هذه المجالس. مع أنه كان يستطيع أن يرسل شاعريته وخياله إلى مدى أوسع وإلى أفق أبعد مما حدثنا. به ولكن المؤيد كان شاعرا ذاتيا يتحدث عن نفسه ويحسن الحديث عن حاله أكثر مما كان يتحدث عما حوله فقد كان يرى نفسه أهلا للفخر حتى بعد أن ذاق الذل وانتصرت عليه المحن والخطوب وكأنه لم ينشد هذا الشعر إلا ليعزى نفسه فهو لم يحتمل ما احتمل إلا فى سبيل الدعوة وفى سبيل الأئمة وهذه عنده بل عند شيعة الفاطميين نعمة لاتتاح إلا للمخلصين ولذلك كان مطمئنا إلى أن ما لاقاه من المصاعب والآلام هى شفيع له عند الأئمة وعند ربه.

تأثر المؤيد بالقدماء

وهناك ناحية أخرى نراها واضحة جلية فى فن المؤيد الشعرى تلك هى محاولته محاكاة الشعراء الذين سبقوه. فالمقدمات التى نراها فى أوائل القصائد والتى أنشدها ليهئ بها الأذهان قبل الوصول إلى غرضه لم يكن فيها إلا مقلدا لغيره من الشعراء القدماء فقد عمد مثلا إلى الغزل فى بعض قصائده فشبب وأجاد فى التشبيب حتى يخيل إلى القارئ أن المؤيد شاعر من الشعراء الغزلين بل من تلاميذ مدرسة عمر بن أبى ربيعة الذى كان يحاور صديقته فى شعره ويتحدث إليها وتتحدث إليه ولكن شتان بين الشاعرين فعمر لم يكن عفيفا بخلاف المؤيد الذى لم نعرف عنه فاحشة ولم يذكر لنا المؤرخون أنه أحب امرأة أو تغزَّل بامرأة معروفة ولم نعلم أن النساء كن يستهوينه أو أنه كان صاحب لهو وقد حدثنا المؤيد نفسه فى شعره بأنه عاش عفيفا طول أيام حياته :

قد شيبت منى العذار العفة   ما زالت من ميزانها فى الكفة
ما شاق قلبى وتـر أو زمـر   ولم تدب فى عروقى خمـر
عبادتى كل الزمان عادتى   ما ملكت يد الهوى مقادتى

فوصف نفسه فى هذه الأبيات بأنه رجل صالح متعبد فى جميع أطوار حياته لم يذق الخمر ولم يتأثر بسماع غناء أو زمر. ومع ذلك نراه قد بدأ بعض قصائده بالغزل شأنه فى ذلك شأن شعراء الجاهلية ومن تبعهم من شعراء العربية وظل هذا سبيل الشعراء حتى أراد شاعر كأبى نواس أن يجدد فى شعره وألا يتقيد بمنهج القدماء فتهكم بهم وبغزلهم. ولكن أبا نواس اضطر أيضا إلى أن يترك تجديده وإلى أن يحاكى القدماء وينهج نهجهم عندما كان يمدح الخلفاء أو الأمراء. وجاء المؤيد بعد أبى نواس بثلاثة قرون تقريبا فأبى إلا أن يسلك الطريق القديم وأن يبدأ أكثر قصائده بالغزل كما بدأ القدماء. وأن يذكر حنينه لبلاده كما حنوا. ففى حديث المؤيد عن شيراز وأهله الذين تركهم واضطر إلى أن يعيش بعيدا عنهم كان يترحم على أيامه التى قضاها فى بلاده هانئا بين إخوان له يحب بعضهم بعضا ويعطف الواحد على الآخر وكان إخوانه هؤلاء يحملون للمؤيد فى نفوسهم أسمى احترام وولاء فبكى لفراقهم وأظهر جزعه لما قد يصيبهم بعده. كما كان يتحدث أيضا عن أهل بلده المتحاسدين المتباغضين الذين سعوا للإيقاع به واضطهاده ولذلك نرى فى شعر المؤيد

عاطفتين نحو بلاده، عاطفة البغض والمقت الشديدين أظهرهما عندما تذكر أن أكثر أهل شيراز يدينون بمذهب يخالف مذهبه وأنهم فى نزاع دائم مع شيعته:

إن تكن لى شيراز دار ومنها　　نشأ الجسم لى وليدا وشبا
فحقيق مقتى لها فهى عش　　لعتيق ولادلم الرجس نصبا

فحدثنا بهذا الشعر بأنه كان يبغض بلده التى ولد وترعرع فيها وأن غضبه أو بغضه إنما يرجع إلى أن أهالى شيراز يدينون بمذهب أهل السنة فلو لم يذهب أهل شيراز إلى هذا المذهب ما وجد المؤيد سبيلا إلى الغضب من بلده. أما العاطفة الأخرى التى تظهر لنا فى شعره فهى عاطفة حبه لبلاده وحنينه إليها وتغنيه بأيامه فيها وحسرته على فراقها، وهى عاطفة كما ترى تخالف عاطفته الأولى. وأكثر شعره الذى حدثنا فيه عن بلاده إنما حدثنا فيه عن حنينه وحبه لبلاده ولإخوانه وعشيرته فهو على هذا الوجه مقلد للقدماء الذين حنوا إلى بلادهم بعد فراقها ووصفوا حنينهم فى أشعار بها لوعة لفراق البلاد ومن بها. على أن القدماء اعتادوا أن يتحدثوا عن أوطانهم فى أوائل شعرهم بينما لم يذهب المؤيد مذهبهم فى ذلك بل كان يلم بذكر فارس فى أول القصيدة أو فى وسطها أو فى آخرها، فكأنه لم يتخذ ذكر الحنين إلى بلاده وسيلة فى شعره فقط كالقدماء بل كان غاية أيضا.

وجل المعانى التى أتى بها المؤيد فى شعره قديمة معروفة طرقها كثير من الشعراء فتأثر المؤيد بها، ونجد فى ديوانه أثرا واضحا لبعض الشعراء الذين سبقوه. فمثلا نجد المؤيد فى مطلع قصيدته العشرين قد قال:

لقد علمت مصرها والشام　　وقطر الحجاز وأرض اليمن
وفارس من قبلها والعراق　　إلى السند عمرانها والدمن
بأنى سيف لآل النبى　　صقيل صقلت بماء اللسن

هذا المطلع نفسه تقليد يكاد يكون حرفيا لقول المتنبى فى مقصورته:

لتعلم مصر ومن بالعراق　　ومن بالعواصم أنى الفتى

ومما لا شك فيه أن المؤيد أخذ قول المتنبى وبنى عليه قصيدته، ولا نستطيع أن نقول إن توارد الخواطر هو الذى دفع المؤيد إلى أن يقول ما قاله المتنبى، فمما لا شك فيه أيضا أن المؤيد قرأ شعر المتنبى ويدلنا على ذلك قول المؤيد عن المتنبى:

فغدوت باللأواء مفصوم العرى   من طـول ما تعتادنـى اللأولاء
مـترنمـا دهــرى ببيت قالـــه   من ليس ينكر فضله الشعــراء
«وشكيتـى فقـد السقـــام لأنه   قد كان لما كـان لى أعضــاء»

فقد تمثل المؤيد هنا ببيت من أبيات المتنبى التى مدح بها أبا على هرون بن عبد العزيز الأوراجى وذكر المؤيد أن صاحب هذا البيت سيد الشعراء لأنهم لا يستطيعون أن يجحدوا فضله. ومعنى ذلك أن المؤيد كان يعرف الكثير من شعر المتنبى وكان يشهد للمتنبى بالتفوق فى الشعر وحاول أن يقلد المتنبى فى بعض أشعاره فإذا هو مرة يُضَمِّن قصيدة من قصائده بيتا للمتنبى وأخرى يأخذ معانيه وألفاظه كما رأينا. وكذلك ضمن المؤيد فى إحدى قصائده بيتا من شعر العرجى دون أن يشير إلى أن هذا البيت قديم فلو لم نعلم أن العرجى قال:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وســداد ثغــر

لذهبنا إلى أن هذا البيت من قول المؤيد الذى أخذ هذا البيت وأدخله فى شعره دون أن يشير إلى أنه للعرجى ويخيل إلى أن المؤيد قد تمثل أمامه العرجى وهو يقول هذا البيت وذكر المؤيد أن حياة العرجى تتفق فى بعض نواحيها مع حياته. فالعرجى كما نعلم أبلى عن المسلمين فى الحروب بلاء حسنا وأنفق مالا جزيلا فى سبيل نصر المسلمين ومع ذلك لم ينفعه بلاؤه فى الحروب ولم يفده المال الذى أنفقه فلم يأبه به الخليفة الأموى وانتهت به حياته إلى السجن وكذلك المؤيد. فقد أبلى بلاء حسنا فى سبيل الدعوة والأئمة ودافع عن الدعوة وعن الأئمة بلسانه وقلمه ومع ذلك أخفق فى آماله ومطامعه ولم ينفعه بلاؤه ولا دفاعه فتمثل بهذا البيت من شعر العرجى.

وإذا نظرنا إلى قصيدة المؤيد التى قال فيها:

لأنى غريب فؤادى حريب   عليه الليالى بليــل تكــر
طريد شريد فريــد وحيــد   فقيـد لإلــف وديــد يبــر

نراه متأثرا ولا سيما فى البيت الثانى بأبيات مسلم بن الوليد:

ويحى أنا الطريد   ويحى أنا الشريد
ويحى أنا المعنى   ويحى أنا الفريـد

ويحى أنا الممنى ويحى أنا الوحيد
ويحى أنا المبلى ويحى أنا الفقيد

فهذه الألفاظ التى فى شعر مسلم "الطريد. الشريد. الفريد. الوحيد. الفقيد أخذها المؤيد الواحدة تلو الأخرى على النسق الذى حدثنا به مسلم ونظمها المؤيد فى بيته.

وقد يطول بنا الأمر لو وقفنا على كل قصائد المؤيد لنبين تأثره بالقدماء وتقليده لهم.

كلفه بالزينة البديعية

وكما كان المؤيد مقلدا للقدماء فى ألفاظه ومعانيه كذلك نراه يتأثر بالاتجاه الفنى الذى غلب على عصره. أى أنه تأثر بالمذهب القديم الذى أكثر منه مسلم بن الوليد فى القرن الثانى وأبو تمام فى القرن الثالث فى التلاعب اللفظى. وكان شعراء القرن الخامس يكفلون بالبديع وبالموسيقى اللفظية ويتلاعبون بالألفاظ، وأعجب جمهرة المتأدبين فى هذا العصر بهذا اللون من الفن وجاء المؤيد فأسرف فيه إسرافا شديدا وتكلف الزينة اللفظية والبهرج البديعى الذى أخذ ينتشر ويقوى فى الشعر العربى وفى النثر العربى أيضا منذ القرن الثانى للهجرة، وأخذ علماء البيان يكثرون من الحديث عن هذا الفن منذ عهد الجاحظ حتى إذا كان القرن الخامس وجدنا عدة كتب قد وضعت لهذا الفن وعدة مصطلحات خاصة به تدل على دقائقه وأسراره فلا غرابة إذن إذا وجدنا المؤيد قد ذكر الاصطلاح الخاص الذى وضع للزينة اللفظية وهو "البديع" بمعناه الذى اتفق عليه علماء البلاغة:

وذكرها هجو للهجاء فمن يرد بديعا فذكرى للهجاء هجاء

فكأن المؤيد وهو ينظم هذا البيت قد تمثل أمامه ما ذكره العلماء عن علم البديع وتذكر المصطلحات التى وضعت له. فلولا معرفة المؤيد لهذا العلم ما أتى بهذا البيت. ولو لم يستمع المؤيد إلى الشعر الذى ظهر فيه التكلف والصنعة والتلاعب بالألفاظ لما كلف نفسه وشعره هذا الفن البديعى الذى كثيرا ما كان يفقده المعنى الذى قصد كقوله مثلا:

شقاؤك فى جيد الشقاء قلادة وهل عجب أن للشقاء شقاء

وقوله:

بكيت إلى أن صار يبكى لى البكا فهل عجب أن للبكاء بكاء

فقد أراد فى البيت الأول أن يصف حال من ترك مذهب الفاطميين ومال إلى غيرهم بأنه شقى وأن شقاءه أشد وأعظم من أى شقاء آخر فتلاعب المؤيد باللفظ كأنه فتن بالقافات الكثيرة التى فى هذا البيت وشغف بلفظ الشقاء فكرر هذا اللفظ فأفسد المعنى وكذلك فى البيت الثانى أعجب بلفظ بكى وما اشتق منه ولكن لم يخبرنا البيت عما أراده المؤيد إذ كيف يبكى البكاء؟ هذا ما أعجب منه وإن كان المؤيد قد ذهب إلى أنه لا سبيل إلى العجب من بكاء البكاء. ولكن المبالغة المحالة هى التى جعلت المؤيد يقول ذلك.

هذه أمثلة من عبث المؤيد اللفظى فقد حاول التظرف بالفن فجمل فنه بأنواع البديع فكان يكرر اللفظ فى البيت الواحد أكثر من مرة محاولا أن يظهر شيئا من براعته اللفظية كقوله:

شق منى الفؤاد شقا وأشقى بالضنا شيقا إلى الوصل صبا

وقوله:

إذا ما لواء الحمد زين أهله فأنت لمحمود اللواء لواء

وقوله:

إنسان عين زمانه بولائه يسطُو على غرر الزمان زمانه

وغير ذلك من الشواهد الكثيرة التى نستطيع أن نستخرجها بسهولة ويسر من ديوانه والتى تدل كلها على أن المؤيد كان شديد الشغف بهذا الفن البديعى ولكنه كثيرا ما كان يسقط فى محاولته لهذا الفن لأنه أفسد كثيرا من المعانى التى كان يقصد إليها بمثل هذه المحاولات فكان مثله فى ذلك مثل أبى تمام حين سمعه إسحق الموصلى ينشد:

المجد لا يرضى بأن ترضى بأن يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

فقال إسحق: «يا هذا لقد شققت على نفسك إن الشعر لأقرب مما تظن[1]». فكذلك المؤيد قد شق على نفسه حتى تكلف مثل هذه الأبيات التى أفسدت عليه شعره.

ولكن نرى من ناحية أخرى أن المؤيد قد أضاف إلى بعض شعره بهذه الزينة البديعية جمالا وروعة حين استطاع أن يلائم بين اللفظ والمعنى وحين استطاع أن يجعل فنه البديعى

(١) الوساطة ص ٦٨.

يتفق مع المعنى الذى قصد إليه فجاءت أبياته بلون من الفن العذب المحبب إلى السمع وإلى العقل معا كقوله مثلا:

تراه ياصاح صحا عن الهـوى　　والصبر قد واصلـه لما فصـل
أم استجار بالنوى من الهـوى　　فشفـه هذا وهـذا لـم يـزل
هب الهوى هوى به فى خطة　　كم من شجاع بطل فيها بطـل

فواضح فى هذه الأبيات أثر الصنعة الفنية والتكلف اللفظى فقد أجهد المؤيد نفسه فى البيت الأول حتى أتى بجناس فى الشطر الأول ومقابلة بين الوصل والفصل فى الشطر الثانى. وفى البيت الثانى أتى بالنوى والهوى حتى تتم النغمة الموسيقية التى تتألف من اللفظين وازداد تلاعبه فى البيت الثالث فنجد فى الشطر الأول جناسا ثم تلاعبا آخر فى (هب الهوى) و (هوى به) وجناسا آخر فى بطل وبطل ومع هذا التلاعب اللفظى لم يفسد المعنى الذى قصد إليه الشاعر ثم انظر إلى قوله:

ياللتغرب أنت بئس الداء　　فغناك فقر والعطاء عنـاء
والعز ذل والسعادة شقـوة　　واليسر عسر والبقاء فنـاء

ففى هذين البيتين لا نجد إلا مقابلات بين الألفاظ تتلو بعضها بعضا ومع ذلك لم يفسد المعنى الذى أراده الشاعر بل كانت هذه المقابلات سببا فى جمال الشعر.

وعلى هذا النحو استمر المؤيد فى بعض شعره يتلاعب باللفظ وبالزينة البديعية فكان يخفق أحيانا فى الوصول إلى المعنى فكان يأتى بأشعار لا طائل تحتها ولا معنى لها وكان يوفق أحيانا أخرى فى هذا التلاعب فكان يأتى بالشعر الجميل فى لفظه وموسيقاه ومعناه.

والجيد من ديوانه الذى أنشره الآن هى عدة أبيات هى التى صدرت عن نفس الشاعر وصورت عواطفه وميوله. أما غير ذلك من شعره ولا سيما القصائد التى أكثر فيها من الحديث عن العقائد فهى قصائد لا تتحقق فيها الوحدة فى التفكير وإن كان يتحقق فى بعضها الوحدة فى بعض أجزائها بحيث تستطيع أن ننقل بعض أجزاء القصيدة دون أن تشعر بتخلخل أو تصدع فى بنائها، بل تستطيع أن تنقل بعض أجزاء القصيدة الواحدة عن مكانها وتثبيتها فى مكان آخر دون أن يفسد ذلك القصيدة[1].

---

(١) راجع فى القصيدة الأولى البيتين الرابع عشر والثامن عشر فهما يختلفان فى المعنى عن سابقهما وما بعدهما

وكثيرا ما كان المؤيد يُضَمِّن كل بيت معنى مستقلا[1]. وقد يضمن البيت معنيين يستقل كل واحد منهما جزءا من البيت كقوله:

إليه انتهى نص الإمامة، علمه   لمرضى قلوب العالمين شفاء[2]

ففى القسم الأول من البيت مدح المؤيد إمامه بأن نص الوصاية انتهت إلى الإمام، وفى القسم الثانى مدح المؤيد إمامه أيضا بأن علم الإمام يشفى مرضى القلوب، أى أن المؤيد أتى هنا بمعنيين اختلف أحدهما عن الآخر فالمعانى كثيرا ما تتزاحم فى شعره.

---

(١) راجع فى القصيدة الثالثة عشرة من البيت السادس عشر إلى البيت الحادى والعشرين فكل بيت يكاد يستقل بمعنى يختلف عن سابقه وتاليه.

(٢) القصيدة الثالثة عشرة.

خاتمـة

لعلك أدركت كيف كان المؤيد عالما من أكبر علماء عصره. وكيف كان واسع الثقافة والعلم بما كان يدور حوله من مختلف ألوان الحياة العقلية والأدبية. وكيف شارك فى هذه الحياة العقلية وتلك الحياة الأدبية وكان نتيجة ذلك هذه الكتب التى وضعها المؤيد وأصبحت من أمهات كتب الدعوة الفاطمية بل لاتزال إلى اليوم فى نظر طائفة البهرة من كتبهم المقدسة التى لا يصل إليها إلا من درج فى علوم مذهبهم وبلغ أعلى درجاتها.

وقد ذكرنا كيف أثر المؤيد فى معاصريه تأثيرا قويا واضحا وأنه استطاع أن يخلب معاصريه ببيانه ويسحرهم بفصاحته ويبهرهم بقوة حجته فانقاد له خلق كثير ولا سيما جمهور أهل الديلم فى شيراز والأهواز فكانوا يثورون من أجله إذا أصابه من السلطان مكروه ولم يعبأ بوعيد الأمراء ولا بتهديد الشعب الذين كانوا يكرهون المؤيد ومذهبه بل استطاع المؤيد ببيانه وحجته أن يجذب السلطان أبا كاليحار إليه بعد أن كان لا يحتمل سماع ذكره بل ذهب المؤيد إلى أبعد من ذلك فقد أخضع السلطان له وجعله يعتنق مذهب الفاطميين. وأكثر من هذا كله فقد امتدت يد المؤيد إلى الخلافة العباسية فى بغداد فاستطاع بدهائه وتدبيره أن ينتزع بغداد من الخليفة العباسى فدعى على منابرها للخليفة الفاطمى مدة عام كامل لو كانت الأمور فى مصر قد سارت على ما أراده المؤيد لفقدت الخلافة العباسية من العالم الإسلامى ولكنه لم يجد بين الوزراء المصريين من يصغى لآرائه ويعمل بمشورته وهكذا كان أثر المؤيد فى السياسة قويا واضحا.

أما من الناحية العلمية والأدبية فقد كان المؤيد معلما له تلاميذ استمعوا إليه وأخذوا عنه. وكنت أرجو أن تتيح لى ما أعرفه من الفارسية لأتحدث عن تلميذ له عرف عنه أنه من أشد الناس تأثرا بالمؤيد ذلك التلميذ هو ناصرى خسرو الشاعر الفارسى الذى وصف مجلس المؤيد كثيرا فى أشعاره كقوله:

(١) كه كرد از خاطر خواجة مؤيد — در حكمت كَشاده برتويزدان
(٢) هرآنك أورا ببيند روز مجلس — ببيند عقل را سردر كريبان
(٣) شب من روز رخشان كرد خواجه — ببرهان هاى چون خورشيد رخشان

(٤) زى كوشه منظـر أوبــن كريــدم   بزيرى خويش ديدم شــرخ كــردان
(٥) مرا بنمـود حاضـر هـر دو عالــم   بيك جـا درتنـم بيــدا وپنهـــان
(٦) بيك جامـا لك ورضــوان بـديـدم   نشستـه در بــرم فــردوس ونيــران
(٧) مرا كفتاكـه من شاكــردا اويــم   أشاره كرد آنكـه ســوى رضـــوان[1]

وترجمتها إلى العربية:

(١) إن الله قد فتح عليك باب الحكمة مما تفتح عنه خاطر الأستاذ المؤيد.

(٢) كل من يراه يوم المجلس يرى عقلا مفكرا.

(٣) إن الأستاذ جعل ليلى يوما مشرقا ببراهين منيرة كالشمس.

(٤) إنى نظرت من زاوية عقله فرأيت الفلك دائرا تحتى.

(٥) فقد أطلعنى على العالمين (الظاهر والباطن) على أنهما حاضران وفى مكان واحد من وجودى.

(٦) إنى رأيت فى مكان واحد مالكا ورضوان واستقر فى صدرى الفردوس والنيران

(٧) وقال لى إننى تلميذه وأشار عندئذ إلى رضوان[2]

وكنت أرجو أن أتحدث عن أثر المؤيد فى ناصرى خسرو ولكن معرفتى بالفارسية لا تؤهلنى لذلك.

وفى مصر وصل المؤيد إلى مرتبة داعى الدعاة فكان بذلك أستاذها الأكبر واجتمع حوله المؤمنون بدعوته يأخذون عنه أسرار الدعوة ودقائقها وهى التى أودعها المؤيد كتابه المعروف بالمجالس المؤيدية ولكن لم يصلنا من كتب الدعوة التى وضعت فى مصر بعد المؤيد ما نستطيع بها أن نقرر مدى أثر المؤيد فى العلماء المصريين.

ومع ذلك فالمؤيد من ناحية أخرى يعد أستاذ الدعوة الفاطمية فى اليمن مع أنه لم يرحل إليها بل نقل تلاميذه إلى اليمن آراءه وتعاليمه. وعلماء الدعوة فى اليمن هم أكثر الناس حديثا عن المؤيد واقتباسا من كتبه واستنادا لحججه وأشدهم اعتقادا بأن الحق هو ما قاله المؤيد دون غيره من الدعاة ويكفى أن ننقل ما ذكره صاحب كنز الولد[3] لنؤيد ما ذهبنا إليه. قال: وسيدنا المؤيد أقرب الحدود إلينا وهو لا يأتى إلا بصحيح ما جاء به الحدود

---

(١) ديوان ناصرى خسروا طبع طهران سنة ١٣٠٧ ص ٣١٣

(٢) تفضل بمساعدتى فى الترجمة زميلى الصديق الدكتور إبراهيم أمين مدرس اللغة الفارسية بالكلية

(٣) على حاشية المجالس المؤيدية ج ١ ص ١٣٤.

وإلغاء ما كان فيه شبهة أو فساد لأن الآخر ينسخ ما جاء به الأول بإيضاح الرموز والمؤيد حجة رائع الإشهاد ذو القوة فى العلم والتأييد والحكمة والتسديد المنصوص عليه باسم الحجحجية كما قال مولاه:

ياحجة مشهورة فى الورى وطـود علم أعجز المرتقـى

فهذه شهادة من لا ترد شهادته وأمر من لا يرد أمره وتفويضه له فى نشر ما أحب أن ينشره من العلم بلا حصر ولا قصر لعلمه بما عنده من الحق.

أما الذى نقل آراء المؤيد إلى اليمن فهو تلميذه لمك بن مالك قاضى قضاة اليمن فى عهد الصليحى ولم أجد فى الكتب التى تتحدث عن اليمن وتاريخها شيئا عن لمك بن مالك ولكن الحسن بن نوح صاحب كتاب الأزهار ذكر لنا قصة طويلة عنه فقال إن الصليحى بعد أن تم له ملك اليمن ومكة ودعا فى بلاده للمستنصر الفاطمى أرسل قاضى قضاته لمك ابن مالك إلى مصر على رأس جماعة من وجوه الأولياء للسماح للصليحى فى النهوض إلى العراق ولما جاء لمك مصر نزل فى دار المؤيد وانتهز هذه الفرصة فأخذ عن المؤيد أسرار الدعوة، وكان يكتب كل ما سمعه عن أستاذه وظل يلازم المؤيد خمس سنوات ملازمة الظل إلى أن استوعب كل ما عند المؤيد وكان المستنصر قد حجز وفد اليمن لأسباب لم يذكرها ولم يسمح لهم بالسفر إلا بعد قتل الصليحى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة[1]. ولما عاد لمك إلى اليمن بخل بعلمه ولم يسمح إلا بالشىء القليل منه للداعى المكرم بن الصليحى المتوفى سنة ٤٨٤ [2] والملكة الحرة أروى وأحمد بن قاسم بن ولى وغيرهم من دعاة اليمن، ولكن لمك بن مالك اختص ابنه يحيى بن لمك بجميع ما عنده من العلم والحكمة وسلمه كل ما دونه عن المؤيد فهيأ بذلك ابنه يحيى لتولى الدعوة حتى صار يحيى حجة اليمن فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى. فأخذ يحيى فى إلقاء دروس الحكمة التى أخذها أبوه عن المؤيد على جمهرة دعاة اليمن، وذكر منهم صاحب الأزهار جماعة منهم الخطاب بن الحسن المتوفى سنة ٥٣٣ هـ وذؤيب بن موسى المتوفى سنة ٥٤٧ هـ [3].

والداعى ذؤيب بن موسى أستاذ الداعى إبراهيم بن الحسين الحامدى المتوفى سنة

(١) فى كتاب الأزهار أن الصليحى قتل سنة ٥٣؟ هـ وتبعه فى ذلك الدكتور حسين الهمدانى بينما اتفقت كل كتب التاريخ على أنه قتل سنة ٤٧٣ هـ.

(٢) فى كتاب الأزهار أن المكرم توفى سنة ٤٧٧ هـ، بينما كتب التاريخ تجمع على أنه توفى سنة ٤٨٤ هـ

(٣) كتاب الأزهار ج ١ ص ٣٨ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن رقم ٢٥٨٤٩).

٥٥٧هـ وهكذا أخذ دعاة اليمن علوم الدعوة أحدهم عن الآخر وأستاذهم الأول فى ذلك هو المؤيد. وإذا تصفحنا كتب الدعوة التى وضعت فى القرنين السادس والسابع لا نجد كتابا منها يخلو من استشهاد بأقوال المؤيد أو بأشعاره وكان أصحاب هذه الكتب يشيرون إلى المؤيد بقولهم "سيدنا المؤيد" إمعانا فى تعظيمه، فصاحب كنز الولد ذكر المؤيد أكثر من أربعين مرة فى كتابه واقتبس من مجالسه ومناجاته وشعره. وصاحب الأنوار اللطيفة ذكر المؤيد أكثر من ثلاثين مرة كما رتب المجالس المؤيدية وجمعها فى كتاب باسم "جامع الحقائق". ونقل صاحب كتاب "الأزهار" فصولا بأكملها عن المؤيد منها رسائل المؤيد إلى أبى العلاء المعرى. وإذا فقد كان المؤيد عظيم الأثر فى الدعوة الفاطمية ولاتزال كتبه إلى الآن من أمهات الكتب التى لا يقربها إلا شيوخ الدعوة الطيبية فى الهند واليمن.

أما أثره من الناحية الأدبية فهو أثر ضعيف لا يكاد يذكر فأشعاره ورسائله ومناجاته التى استشهد بها علماء اليمن لم يذكروها إلا لإثبات عقيدتهم الدينية ولم يحتفظ علماء الدعوة بديوان المؤيد إلا لأنه من الآثار الدينية ومن كتبهم المقدسة التى يقرأونها بعد الصلاة أو قبلها على النحو الذى يتبعه الصوفية فى قراءة الأوراد. ولو لم تأخذ أشعار المؤيد هذه الصفة الدينية لضاع شعر المؤيد كما ضاع شعر غيره من الشعراء.

وفى عصرنا الحديث لو لم ينشر الأستاذ مرجوليوث رسائل المؤيد مع أبى العلاء لظل المؤيد مجهولا.

وبعد: أرجو أن أكون بهذا البحث قد وفقت إلى الكشف عن شخصية المؤيد داعى الدعاة، وأن أكون قد وفقت أيضا إلى إظهار حقيقة مذهب الفاطميين التى ظلت موضع شك مدة طويلة.